

السعي لبناء مجتمع خير وصلاح



قال تعالى: ﴿إِنَّ زَمَّامًا لِّمُؤْمِنِيٍّ إِخْوَانًا لِّقَوْمِهِمْ فَاعْتَصِمُوا بَدِينِهِ خَوْفًا وَطَمَعًا لِّتَقْبَلُوا الْبَرَكَاتِ أَنتُمْ لَهَا مُتَّقُونَ﴾ (الحجرات/ 10). إنَّ العمل على تحقيق الأخوة والتواصل والاجتماع وإصلاح ذات البين من أوجب الواجبات الإلهية ضرورة أنَّهُ لا يمكن بناء مجتمع متماسك يسير في خدمة الأهداف العُليا للإسلام ما لم يكن هذا التكليف قائماً ومعمولاً به لدى المسلمين حيث في المقابل يكون التشتت والتفرُّق وتحكم روح العداوة عاملاً هُدماً لا تستقيم معه مسيرة أهل الإيمان، وهو سبب في فشل وسقوط كثير من القضايا الهامة على مرَّ العصور ولا يزال، فالمطلوب أن تسود روح الجماعة والوفاق في إعزاز المصالح العامة، لا روح الفرد والشقاق في خدمة المصالح الخاصة بما تحكهما من أهواء ورغبات يقول عزَّ من قائل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (آل عمران/ 104)، وفي بيان قرآني آخر تأكيد على أنَّ هذا الواجب هو غاية الإرادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْيَدُوا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لَيُخْلِقَنَّ مِنْ عِندِنَا طَائِفًا مِّنْهُمْ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِ الْكِتَابِ لِيُنذِرَ لِقَوْمِهِمْ إِذَا هُمُ اتَّعَبُوا﴾ (سورة القصص/ 26). وفيما جاء عن الإمام الكاظم (عليه السلام): «يا بن بكير! إنِّي لأقول لك قولاً، قد كانت آبائي (عليهم السلام) - تقوله: إنَّ للحق أهلاً، وللباطل أهلاً، فأهل الحق يجأرون في إصلاح الأمة بنا، وأن يبعثنا إياهم رحمة للضعفاء والعامة».

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة/ 2)، إنَّ إغاثة الآخرين ومؤازرتهم في مواطن الشدائد ونزول المصائب أمر أولاه الإسلام اهتماماً كبيراً وهو من أعظم شيم وشمائل أهل الولاية سواء في الترابط والتزاور أو في تقديم المساعدات المالية أو البدنية أو المعنوية أو سائر أشكال التعاضد والتكافل سيَّما الفقراء والأيتام والمساكين. ويعتبر السعي في قضاء حوائج الناس من أعظم القربات الإلهية التي أعدَّ عليها الثواب الجزيل فوق ما يتصوره الإنسان ويتوقعه حيث جاء عن الإمام الباقر (عليه السلام): «مَنْ مشى في حاجة أخيه المسلم أظله إياهم بخمسة وسبعين ألف ملك ولم يرفع قدماً إلا وكُتِبَ بها حسنة، وحط عنه بها سيئة ورفِعَ له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتبَ إياهم له عزٌّ وجلٌّ بها أجر حاج ومعتمر». وفي الحديث أيضاً: «إنَّ عباداً في الأرض يسعون في حوائج الناس هم الآمنون يوم القيامة».

ومن العوامل الأساسية لبناء المجتمع هو التواضع والذي يعتبر مصدر قوة للإنسان وليس ضعفاً ووهناً وبه الأمر في الكتاب الكريم: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء/ 215)، وقد أشاد أهل البيت (عليهم السلام) بشرف هذا الخلق واعتبروه من خصال المؤمن وسبباً في رفعة كما جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام): «إنَّ في السماء مَلَكين موكلين بالعباد، فمن تواضع ﴿رفعا، ومَن تكبَّر وضعاه»، والذي يرتبط بمقامنا هو دور التواضع في عملية الإصلاح والعلاقة مع الآخرين فإنَّه ليس هناك شكُّ في أنَّ بعض الناس يقومون بخدمة الآخرين أو إجابتهم لكنَّ مع روح مستعلية وتكبُّر زائف من خلال ثقافة الطبقات والميَّزات العرفية أو العائلية أو غيرها ممَّا لا يقيم له الإسلام وزناً في واجب احترام الآخر وإنَّما المدار على التقوى في الأفضلية، فمن هنا لا بدَّ من إيضاح هذا الجانب من خلال الآثار التي يتركها في نجاح العلاقات الإنسانية أو فشلها والواقع أنَّه لا يمكن التصديق أنَّ التواصل والارتباط الوثيق بين أفراد أو مجتمعات هو قابل للاستمرار والديمومة طالما أنَّ أحد الطرفين في إصرار وتصميم على استحقار الآخر والاستعلاء والتكبُّر عليه، فكيف يكتب ذلك في سجل محاولات الإصلاح مع كونه دعوة عملية لسيادة منهج الاستكبار الذي يبغضه ﴿عزَّ وجلَّ كلَّ البغض حيث يقول سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزُّمَر/ 60).

وهناك جوانب أساسية في معايشة الناس أكَّد عليها القرآن الكريم وما هي إلا مصاديق ومفردات للتواضع الذي هو ركيزة النجاح في المعاملة معهم أو إصلاح أُمورهم أو مدِّ يد العون لهم كما في سورة لقمان: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ رَوْعَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَا يُحِبُّ كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان/ 18)، ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَزْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان/ 19).